بعض معالم عهد شارلمان

بعد سقوط روما فى يد المتبربرين سنة ٤٧٦م ، أصبح أباطرة القسطنطينية يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للأباطرة الرومان فى الغرب ، فاعتبروا شبه جزيرة إيطاليا من أملاكهم ، ورابطت جنودهم فى البندقية واستريا ونابولى وصقلية وكالابريا وراڤنا ، وكان للامبراطور البيزنطى نائب (أرخون) فى راڤنا وممثل فى روما ذاتها .

على أن سيادة بيزنطة فى هذه الجهات تعرضت للنزاع من قبل قوى وسلطات أخرى ، منها اللومبارديون ، وهم آخر موجه من الموجات الجرمانية المتدفقة على الامبراطورية الرومانية ، وقد استغلوا ماحل بالقوط الشرقيين فى إيطاليا من كارثة خطيرة ، وما أصاب البلاد من الخراب ، نتيجة حروب جستنيان ، فتوغلوا بقيادة ملكهم البوين فى إيطاليا ، ولم يلبثوا أن استقروا بها سنة ٥٦٨ وامتد ملكهم إلى جنوبها . واعتنق هؤلاء اللومبارديون المسيحية على المذهب الأريوسى شأنهم فى ذلك شأن معظم المتبربرين ، واشتهروا بحقدهم على الكنيسة الرومانية ، وكراهية الخضوع لسلطانها ، فضلا عن نزعتهم العلمانية وشدة تماسكهم وتجانسهم فى أصولهم ومصالحهم. أما القوة الثانية فتتمثل فى الرومان بجنوب إيطاليا (كالابريا) ، الذين حرصوا على أن يحافظوا على استقلالهم ، بما أنشبوه من نضال ضد اللومبارديين ، وبما تلقوه من مساعدة من قبل الدولة البيزنطية على حين أن البابوات الذين صار إليهم حكومة دوقية روما ، أسهموا فى التعلق بطيف السلطة الإمبراطورية ، فأرّخوا وثائقهم بسنوات حكم الامبراطور البيزنطى ، واعتبروا نائب الامبراطور فى راڤنا وليا لهم ونصيرا ، وبلغ من شدة تعلقهم به ، أنهم ظنوا أنهم لايأمنون على منصبهم ، إلا إذا أقر انتخابهم .

ثم حدث فى القرن الثامن الميلادى ما أدى إلى انفصال العنصر اليونانى ، عن العنصرين اللاتينى والجرمانى . فحدث أول الأمر الانشقاق الدينى نتيجة ما جرى

فى القسطنطينية من ظهور حركة مناهضه عبادة الصور المقدسةIconoclasm ، التى لم تجد قبولا فى روما أوعند البابا.يضاف إلى ذلك أن نيابة راڤنا أضحت فريسة سهلة للملك اللومباردى فى باڤيا . غير أن ماحدث من إمعان الملك اللومباردى ايستولف فى التوسع على حساب بيزنطة وروما ، أدى إلى أن يستنجد البابا (زكريا) بملك الفرنجة پپين القصير، فبادر پپين باسترداد المدن التى استولى عليها الملك اللومباردى ، غير أنه بدلا من أن يعيدها إلا الامبراطورية البيزنطية ، أعطاها هبة ومنحة للبابا.وترتب على ذلك أن منحه البابا لقب بطريق الذى لا يمنحه سوى الامبراطور ، وبذلك تعرضت العلاقات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية والبابوية للانهيار .

وإذ أنقذت هـــذه الحوادث روما والبابوية من الخضوع والإذعان لأية سلطة بشرية ، صار لزاما عليهما أن يقوما بتوجيه غرب أوربا فيما يقع من المشا كل العامة . فإلى جانب ما اشتهرت به روما قديما من الأمجاد ، مثل نشر السلام الرومانى، وبسط السيادة على البحر المتوسط ، وأنها مثوى القديس بطرس ، وأنها أسهمت فى نشر المسيحية فى سائر أنحاء أوربا ، ازداد سلطانها بفضل أسطورة قنسطنطين والبابا سلفستر ، وبمقتضى هبة قنسطنطين ، انتقل للبابا ما للامبراطور من زعامة وسيادة على إيطاليا والغرب ، وليس لأية سلطة علمانية أو كنسية أن تقوم فى الغرب إلا بموافقة جمهورية روما التى يمثلها البابا ورجال الدين وأهل روما . وكانت هـــذه النظرية من من أقوى العوامل فى العلاقات السياسية فى القرن الثامن الميلادى .

والواقع أن سنة ٧٥٠م تعتبر خاتمة مرحلة طويلة من مراحل الحياد ، وبداية مرحلة جـــديدة من مراحل النضال فى سبيل الوصول إلى السيادة . ويعتبر البابا هو المسئول عن هذا التغيير . إذ تدخل الـكارولنجيون لنصرة البابا ، فأسهموا بذلك فى قيام الإمارة البابوية .

أما مملـكة الفرنجة فإنها تألفت فى القرن الثامن الميلادى من ثلاث ممالك صغيرة ترتبط فيما بينها بنوع من التحالف . وهـــذه الممالك هى استراسيا ، التى اشتملت

على وادى نهر الميز والجزء الأدنى من إقليم الراين ، ثم نوستريا ، ويحكم ملكها ما هو معروف باسم جزيرة فرنسا Ile de France ونرمنديا ، ولم تكن سلطته على اكيتانية قوية . والمملكة الثالثة ، وهى برجنديا تشمل الأراضى الواقعة بين نهر الرون وجبال الألب . ولم تكن الحدود بين هذه الممالك ثابتة . واحتفظت كل مملكة ببلاط يعتبر مركز حكومة إدارية بسيطة . وارتبطت طبقة النبلاء فى كل منها بروابط المصاهرة ووحدة المصالح ، وبالكراهية لكل دخيل أجنبى .

وارتقى بيت أرنولف الذى ينتمى إليه الكارولنجيون إلى السلطة فى استراسيا ، حينما أضحى ببين لا ندن حاجبا لبلاط استراسيا ، بعد أن اتحدت مع نوستريا زمن لوثير الثانى ملك الفرنجة ، وذلك سنة ٦١٤ . وظلت سلالته تتولى الحجابة للميروفنجيين ، وتتصرف فى كل أمور البلاد ، لما بلغه ملوك الفرنجة من الضعف الشديد ، إلى أن حانت الفرصة سنة ٧٥٢ ، بعد نهوض ببين لمساعدة البابا زكريا ضد اللومبارديين ، إذ أرسل ببين يسأل البابا عما إذا كان من الصواب أن يصبح الحاكم الفعلى ببلاد الفرنجة حاكما رسميا كذلك ؟ ولما كانت البابوية حريصة على الحصول على مساعدة الفرنجة ضد بيزنطة واللومبارديين ، وكان لببين أثره فى إصلاح كنيسة غاله وتنظيم الكنيسة الجرمانية ، فإن البابا زكريا أفتى بأنه يصح له شرعا أن يخلع الميروفنجيين وأن يتخذ التاج لنفسه . وعمل ببين بتلك الفتوى ، وتوّجه المبشر الانجليزى بونيفاس ملكا على الفرنجة فى كاتدرائية سواسون سنة ٧٥١ م ؛ ثم قام البابا نفسه ، بتتويجه مرة أخرى ، مع ولديه شارل (الكبير) وكارلومان ، فى يوليه ٧٥٤ وأشار إلى أن الكرسى الرسولى أمر جميع الأمة بألا تنتخب ملوكها منذ الآن من أية أسرة أخرى ، وجعل القطع والحرمان لمن يخالف الأمر . وعلى هذا النحو ظهرت الأسرة الكارولنجية ، بعد أن مضى على ولادة شارل عشر سنوات ، وقبل أن يتولى الحكم بستة عشرة سنة .

ومنذ سنة ٧٥٤ التى تم فيها تتويج ببين ، دخلت عوامل جديدة فى السياسة

الـكارولنجية ، فما أنكره بيت أرنولف من أفـكار تيوتونية ، لأنها استترت فى ثوب نوسترى ، لم تلبث أن لقيت قبولا ، حينما تقدمت بها روما والبابوية . ولم يعد البيت الـكارولنجى جرمانيا خالصا فى كل ما يجرى فى الحياة اليومية ، وفى تفاصيل العمل الإدارى ، والمحافظة على التقاليد القديمة ، إذ أصبح للدولة القبيلية مطامع ضخمة ، وآمال مسيحية استعمارية ، فاستمدت من كل ذلك حياة جديدة . وترتب على ذلك أن الفرنجة بدأوا منذ سنة ٧٥٤ يلعبون دوراً ملحوظاً فى تاريخ العالم ، فالتزموا بأن ينشروا فى أوربا حضارة اتحدت فيها المؤثرات القبيلية القديمة بالعوامل الجديدة ، فقهروا أوربا وحكموها بوسائل تشبه من جهة ما يجرى فى بيزنطة وما يشتهر به أباطرتها من المهارة السياسية ، وتتصل من جهة أخرى بكلوفيس وسياسته الدينية ، وما عنـد التيوتون من قوانين قبيلية ، وأمدتهم الـكنيسة بحوافز جديدة ، فبفضل نفوذ المبشرين ونفوذ البابا ، توافرت القوة المحركة التى تجعل الارستقراطية الفرنجية تتنزه عن المطامع الشخصية وتؤيد شارلمان . على أنه يصح أن نضيف عاملا جديدا سخر كل هذه القوى ، ووجهها وفق ما يريد ، وهذا العامل يتمثل فى شارلمان ذاته .

شارلمان : والواقع أنه كلما أمعنا النظر فى دراسة حياة شارلمان ، كلما ازداد إدراكنا لتلك السياسة التى اتخذها . فلم ينكر شارلمان ما لأبيه من أثر فى توجيه سياسته ، فـكان يصرح بأن الامبراطورية إنما ترتـكز على الأسس والقواعد التى وضعها بيبين . وما كان يفتقر إليه بيبين هو الروح الملتهبة والشخصية القوية التى أكسبت شارلمان ما حدث من تعلق قومه به ، بل تعلق الشعوب المغلوبة على أمرها به أيضاً .

أحب شارلمان ما للفرنجة من الملابس ، واحتقر كل ما هو أجنبى عنها ، وتعلّق بلغة إقليمه استراسيا وأناشيده ؛ واشتهر شارلمان بالنشاط الوافر ، والإرادة الحديدية ، والتمسك الشديد بالنظام والعدالة ، والشعور الدينى العميق . أنـكر عليـه بعض معاصريه شدة صلابته ، على حين أنه كلما ازدادت معرفة الناس به ، كلما ازداد حبهم له.

وليس ثمت ما هو أقوى وأشد من حكم السكسون الذين توافر لديهم من الأسباب ما يكفى لـكراهيته ، ومع ذلك فإن شارل كان عندهم خير الرجال على وجه الأرض ، وأشجعهم ، إذ أقام العدالة والإيمان وحافظ عليهما .

ومن الواضح أن شارلمان أفاد من البابوية والـكنيسة أكبر فائدة فى سياسته الخارجية . فما قام به من الحملات ضد اللومبارديين والباڤاريين والسكسون ، وما ترتب عليها من تنظيمات كنسية ومرسومات ، إنما يتضح فيها أثر توجيه البابوية والـكنيسة القومية . وطالما أدركنا من شارلمان الشعور العام بالمسئولية ، باعتباره قيِّمًا على مجتمع مسيحى كبير ، وهذا الشعور إنما استمده من البابا هادريان ، الذى كتب إليه يحضّه على الفتح والتبشير والإصلاح . وعلى الرغم من أنه قلما رجع إلى رأى البابا فيما قام به من تنظيم الـكنيسة القومية ، فإنه أفاد من البابوية فى أمرين : الأول ما يتعلق بنحلة التبنى التى نبتت فى أسبانيا ، التى تجعل المسيح مخلوقا انبثق من الأب ، فهو بذلك أدنى منه مرتبة، فتقرر استنكارها بموافقة البابا . أما الأمر الثانى فيتعلق بعبادة الصور التى أعادها مجمع نيقية سنة٧٩٢ ، فعلى الرغم من أنها لا تختلف كثيراً عما هو معروف فى كنيسة روما ، فإن شارلمان ومستشاره الـكوين ، اعتبراها أنها ليست إلا عبادة للأوثان والأصنام ، ويرى بعض المؤرخين « دولنجر » أن ما اتخذه شارلمان من قرار إنما يمهد به إلى اتخاذ اللقب الامبراطورى ، وأبدى البابا استعداده لمهاجمة قسطنطين (السادس) وأمه أيرين والحط من قدرهما لأنهما حازا دون سند شرعى أملاكا تابعة للقديس بطرس (البابوية) .

فـكرة الامبراطورية : يؤكد اينهارت أن ما حدث سنة ٨٠٠ من تتويج شارلمان امبراطورا ، إنما جاء مفاجأة للشخص الذى لا يهم الأمر سواه . فيشير إلى أن شارل كان منذ أول الأمر راغبا عن اتخاذ اللقب الأمبراطورى ، وأصر على أنه لو علم بنية البابا (ليو الثالث) ، ما دخل الـكنيسة فى ذلك اليوم ، على الرغم من أنه من الأعياد الـكبيرة .

والواقع أن تتويج شارلمان إنما جاء نتيجة لما وقع من الحوادث والمؤامرات والمنازعات فى روما والقسطنطينية ، التى لا ترجع فى تاريخها إلى أبعد من سنة ٧٩٨ ذلك أنه حينما مات البابا هادريان سنة ٧٩٥ ، تقرر اختيار ليو مكانه . والمعروف أن ليو خدم بالدار البابوية زمنا طويلا ، واشتهر بالدهاء السياسى . ولعل هذه الصفة الأخيرة هى التى جعلت رجال الدين وأهل روما ينتخبونه ، لما لمسوا فيه من المقدرة على المحافظة على دوقية روما والمقر الرسولى ، على أن ما اشتهر به ليو من سوء الخلق ، وما جرى اتهامه به من السيمونية والحنث بالأيمان والتزوير والزنا ، كان مادة خصبة استغلها فى مهاجمته أعداؤه بروما ، ومنهم جماعة من أسرة هادريان تتطلع إلى أن يتولى البابوية رجل يمثل مصالحهم . يضاف إلى ذلك أن ما لجأ إليه ليو من التدخل فى إدارة المدينة أدى إلى سخط الناس وتذمرهم . واشتد قلق الناس حينما لم يُسفر تحقيق هذه الاتهامات عن نتيجة حاسمة . فأخذوا يتساءلون ماذا تكون النتيجة لو تبيَّن أن البابا مذنب ، من ذا الذى يستطيع شرعا أن يعزل البابا ؟ وإذا تم عزل البابا ، فما أثر ذلك على هذا المنصب ؟ وإلى من يتوجه المسيحيون ليهديهم ؟ أليس ثمة سلطة أخرى تُصْلِح تلك التى ثبت أنها ليست معصومة من الخطإ ؟ وأخذ الاعتقاد يرسخ ، بأن ما حصلت عليه البابوية من استقلال ، وما نعمت به من عدم المسئولية ، لم يؤد إلا إلى ما حل بالعالم المسيحى فى الغرب من فوضى الديانة والتفكك .

أيرين وقسطنطين : لو أن الأحوال كانت عادية ، لكان الحل الواضح أن يعود الأمبراطور إلى سابق مكانته من الزعامة ، فعلى الرغم من أن قسطنطين نبت من أسرة مكروهة ، فإنه ما زال شابا صغير السن فإذا تحرر من وصاية أمه أيرين ، فإنه ربما عاد إلى الطريق المستقيم ، وإذا رجع إلى الصواب ، صار له الحق فى أن يشرف على البابا فى الغرب . غير أن الافتراض جاء متأخرا ، لأن قسطنطين السادس وقع فعلا ضحية طموح أمه التى لم تتردد ، فى سبيل تحقيق رغبتها فى الانفراد بالحكم ، فى تحريض الجند على مهاجمته والقبض عليه وسمل عينيه وذلك فى سنة ٧٩٧ ، فظل فى الحبس حتى قضى نحبه .

والنتيجة التى ترتبت على ذلك ، أن العرش أضحى شاغرا . وعلى الرغم من أن رعاع الملعب هلّلوا لأيرين التى صارت امبراطورة ، فإن عملها لقى سخطا شديدا فى الأقاليم وعند العقلاء من الرجال .

أما أثر الجريمة فى الغرب ، فإن شارل لم يعلم بخبرها إلا أواخر سنة ٧٩٧ ، حينما جاءت رسل إيرين إلى آخن ، ولم تلبث أخبارها أن ذاعت فى أنحاء الغرب بعد طرد البابا ليو من روما سنة ٧٩٧ . وكأن الحادثين وقعا فى وقت واحد ، وكان لوقوعهما معا أهمية كبيرة . فالبابوية والامبراطورية هَوِيتا سويا ، وإذا تلطخت سمعة البابوية بالعار ، حل بالإمبراطورية الدمار .

لم يقبل الفرنجة مطلقا أن يتولى عرش الأباطرة امرأة ، تعتبر زعيمة المتهرطقين . لم يرد فى المراجع مايشير إلى رد شارلمان على رسالة إيرين ، غيرأن رعاياه اعتقدوا أن البيزنطيين فقدوا ما كان لهم من حق قديم فى الانتخاب ؛ وأن ماجرى من الحوادث ليس إلا نذيرا ودليلا على غضب الله . واستبد اليأس بالناس فى مستقبل الكنيسة ، وتفككت عرى السلطان ، وتهدد العالم المسيحى الانحلال .

خاف الناس أن يحل ببيزنطة الدمار ، وأن تقع غنيمة فى يد المسلمين ، فكل أوربا كانت وقتذاك تتحدث عن شهرة هارون الرشيد وفخامة بلاطه فى بغداد ، وأنه لم يعد ثمة مايحول دون توغل جيوشه فى أوربا لتلتقى بالجيش الأموى من قرطبة ، فيتم بذلك سحق الأمم الغربية . وأحس الناس فى آسيا الصغرى بشىء من هذا الخوف . أما بطريرك بيت المقدس ، فإنه فقد كل أمل فى أن تتولى القسطنطينية حمايته ، فدعا شارل لينهض إلى مساعدته ، وأرسل رهبانه إلى إيطاليا بمفاتيح القبر المقدس .

كتب الكرونيين : أن ثمت ثلاث قوى فى العالم (المسيحى) : البابا والامبراطور والملك : وإذ أصاب البابا والامبراطور الفشل ، فلابد أن يضطلع بأعبائهما أقوى الملوك . ورأى شارل أن تسوية هذه الأزمة المزدوجة إنما تتم باتخاذ إجراءين : الأول : هو أن يعيد الثقة فى البابوية ، والأمر الثانى ، هو أن المحافظة على هذه الثقة مستقبلا

تتطلب إعادة الامبراطورية . وعلى الرغم من أنه لم يَرَ مايدعو إلى أن يتخذ مباشرة اللقب الامبراطورى ، وأنه توقع مقاومة عنيفة من قبل البيزنطيين ، وأنه تشكك فى شرعية العمل الذى اقترحه ، فإنه أعدَّ نفسه لأن يتخذ عاجلا أو آجلا الخطوة الحاسمة.

قدم شارل إلى روما فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٠٠ ، ثم أخذ يشرح فى المجلس الذى عقده بعد ثمانية أيام من وصوله الأسباب التى جاء من أجلها ، وتألف هذا المجلس من رجال الدين من الفرنجة والرومان، وبعد أن استعرض كل الأدلة والأسانيد، تبين له براءة ليو من التهم الموجهة إليه ، واطمأن رجال الدين إلى سلامة موقف البابا . انتهى من هذا القرار فى ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٠[1]

وبعد يومين ، أى فى ٢٥ ديسمبر ، ازدحم بكنيسة القديس بطرس بروما حشد كبير من الفرنجة والرومان لغرض مختلف تمام الاختلاف ، كان ذلك يوم عيد الميلاد . وبينما كان شارلمان ينهض من ركعته ، بعد اختتام الصلاة ، تقدم نحوه البابا ليو ، ووضع التاج الامبراطورى على رأسه ، فهلل المصلون ، وهتفوا بشارل أغسطس ، المتوج بفضل الله ، الامبراطور المعظم ، المحب للسلام ، اللهم هبه الحياة الطويلة والنصر، ثم ارتفع دعاء الحاضرين فى صوت جهورى يطلبون من القديسين أن ينصروا الإمبراطور الجديد وأبناءه ورعاياه » وهكذا بُعِثت الامبراطورية ، وصار لغرب أوربا امبراطور رومانى مرة أخرى.

على أن مظاهرة بلغت ما بلغت من هذه الدقة والنظام ، من العسير أن تحدث دون أن يكون ثمة اتفاق سابق . لم يكن شارل فيما يبدو قد أخذ على غرة ، كما يزعم اينهارت لأنه قبل فى هدوء وأناة وصبر ، أن يجرى إلباسه العباءة الامبراطورية . ويروى لنا مؤرخ بيزنطى ماكر ، أنه جرى مسح شارل بالزيت المقدس من قمة رأسه

---

(١) فى نفس اليوم وصل إلى روما راهبان من قبل بطريرك بيت المقدس ، يحملان مفاتيح وعلم القبر المقدس ، وجبل الجمجمة calvaire ومفاتيح المدينة المقدسة ذاتها ـ ولعل هذا الإجراء قد جرى تدبيره ليرفع ، قبيل الاحتفال بعيد الميلاد ، من شأن الملك الذى يتطلع الجميع إلى أن يتخذ لقب زعيم المسيحية

إلى أخمص قدمه ، ولم تكن هذه الطقوس غير مألوفة فى تتويج الأباطرة ، وتشير رواية أخرى إلى ماحدث من مراعاة كل الرسوم التقليدية فى تتويج الامبراطور ، وفى نفس الوقت ، تم أيضا تتويج الابن الأكبر كيما يخلف أباه فى مملكة الفرنجة .

والواضح أن التتويج قام به جماعة ، فلا نستطيع أن نتصور أن ليو يسير على غير هدى فلابد أنه كان متأكدا من حضور هذا الجمع ، وأن البطريق (شارلمان)سوف يكون حاضرا . وتفترق حوليات لورش عن رواية إينهارت فى الإشارة إلى أن ليو استشار فى ذلك رجال الدين وأعيان الفرنجة وأهل روما، فوافقوه على أن يتخذ شارل لقب أمبراطور ، لأنه لم يعد بالقسطنطينية امبراطور . وتضيف الرواية ، أن شارل تلقى هذا القرار بما يليق به من التواضع والرضى . وأعقب ذلك إجراء التتويج .

اعتبر شارل نفسه ، كما اعتبره رعاياه ، الوريث الشرعى لقسطنطين السادس الذى خلعته أمه عن العرش، ولم يكن من رأى شرلمان وجود امبراطوريتين رومانية وبيزنطية ، إذ يعتبر الأمبراطورية وحدة غير قابلة للانقسام ، أما البيزنطيون فاعتبروه مغتصبا للحكم ولم يعترفوا به امبراطوراً . على أن شارل أدرك ما فى موقفه من نواحى الضعف ، فحرص على أن يصل إلى اتفاق مع بيزنطة ، وقامت فكرته على أن يتزوج من ايرين ، غير أن ذلك المشروع لم يتم ، لسخط الشعب البيزنطى وعزل إيرين . ولما تولى نقفور الحكم سنة ٨٠٢ م عرض شارل عقد اتفاق مع أخيه نقفور مثلما حدث زمن دقلديانوس ، بأن تبقى الامبراطورية متحدة من حيث الفكرة ، على أن يحكمها أكثر من امبراطور . ولما لم تلق عروضه استجابة من قبل بيزنطة ، استولى على دالماشيا والبندقية التابعتين للدولة البيزنطية.ومع ذلك لم يحصل على اعتراف الحكومة البيزنطية بلقب الأمبراطور . إلا بعد حربين وبعد أن تنازل عن بعض أملاكه، وبعد مفاوضات طويلة ، وبعد أن تعرضت الامبراطورية البيزنطية لهزيمة ساحقة على يد البلغار ، لقى فيها نقفور مصرعه . والواقع أن شارل لم يكسب امبراطوريته إلا بفضل ماحل بالدولة البيزنطية من كوارث ، وهذا هو الذى حدث فعلا حين قدم فى ٤ أبريل

سنة ٨١٢ إلى آخن رســـل من قبل الامبراطور ميخائيل الأول لإجراء تسوية ، فخاطبوا شارل بالامبراطور الباسيليوس . والمعروف أن شارل أرسل إلى الامبراطور ميخائيل رسـالة يشير فيها إلى سروره لمـا حدث من الاتفاق بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية ، غير أنه لم تجر فى المفاوضات أية إشارة إلى الامبراطورية الغربية ، فمعنى ذلك أن ما اتخذه شارل من لقب امبراطور إنما هو لقب شخصى ، ولا يرتبط بأنه امبراطور على إقليم من الأقاليم ، أو على أقل تقدير أنه لم يكن امبراطورا رومانيا . ومن الملحوظ أن شارل منذ هذا التاريخ أسقط من لقبه عبارة « الذى يحكم الامبراطورية الرومانية » ولعل ذلك يعتبر جانبا من الثمن الذى دفعه للوصول إلى هذا الاتفاق . ويشير بعض المؤرخين إلى أن سنة ٨١٢ لا ٨٠٠ تعتبر تاريخا هاما، بسبب ما حدث من انقسام الامبراطورية الرومانية إلى شطرين : الامبراطورية الشرقية والأمبراطورية الغربية وبذلك يظل تاريخ الامبراطورية الغربية مستمرا على أن ذلك ليس هو المقصود بالاتفاق ، لأن أحدا من الـكارولنجيين ، باستثناء لويس الثانى ، لم يفكر فى استخدام لقب « الامبراطور الرومانى » لأنه ليس من حقهم ، وليست الأمبراطورية الرومانيه من ممتلـكاتهم ، فالمقصود هـــو الأمبراطورية البيزنطية والأباطرة البيزنطيون الذين اتخذوا لقب أباطرة الرومان .

ثم أقدم شارل فى سنة ٨١٣ على اتخاذ خطوة جديدة ، إذ رشح ابنه لويس ليكون قسيما له فى الحـكم،غير أن ذلك لم يتحقق أيضا لأن شارل مات قبل التصديق على معاهدة سنة ٨١٢ . والخلاصة أن الناس لم يجمعوا على اعتبار شارل امبراطورا ، ولم يترتب على اتخاذ لقب الامبراطور الرومانى نتيجة من النتائج ، فلم يصبح شارلمان بسببه صاحب سلطان فى أسبانيا أو بريطانيا أو أفريقيا التى كانت كلها ولايات تابعة للامبراطورية الرومانية فى الزمن الغابر ، بل لم يجلب اللقب الأمبراطورى إلى شرلمان شبراً من أرض لومبارديا التى أخضعها وتملك عليها قبلا .

ومع ذلك فإن شرلمان نظر إلى امبراطوريته على أنها دولة مقدسة ، وأحس أن

العناية الإلهية نصبته حاكما على المسيحيين ، واعتقد أنه أقام مدينة الله التى يقصدها أغسطين ، على أنها نظام دنيوى لسد حاجات الناس الدنيوية بما يرضى الله ، ولإصلاح الحياة الدنيا وتهيئة الناس إلى حياة أفضل فى العالم الآخر . على أن أغسطين رأى أن المظهر المادى لمدينة الله إنما يتمثل فى الكنيسة الكاثوليكية. ولم يجد شرلمان فى ذلك تناقضا ، إذ اعتبر نفسه على رأس النظامين الكنسى والدنيوى ، وأن امبراطوريته تطابق ما لكنيسة الله من مملكة على الأرض .

وكأن شارل نقل إلى حكومة الفرنجة فكرة الحكومة التيوقراطية التى أضحت عاملا هاما فى تاريخ غرب أوربا ، غير أنه فى الوقت ذاته تسبّب فيما سوف يقع من نزاع بين الامبراطورية والبابوية .

العلاقات بين شارلمان والمسلمين : ننتقل إلى مناقشة موضوع العلاقات بين شارلمان والمسلمين ، فالمعروف أن الأوضاع السياسية فى العالمين الإسلامى والمسيحى وقتذاك هى التى أدت إلى قيام هذه العلاقات . وهذه الأوضاع تتمثل فيما يلى :

أولا ـ العداء المستحكم بين بيت أرنولف (الكارولنجيين) وبين الأمويين فى الأندلس .

ثانيا ـ النضال بين الأمويين والعباسيين فى الشرق ، وامتداده إلى الأندلس ، ومحاولة العباسيين انتزاع الأندلس من أيدى الأمويين .

ثالثا ـ الحروب المستمرة بين العباسيين والبيزنطيين .

رابعا ـ العداء بين البابوية والامبراطورية البيزنطية .

تعرض الأمويون ، عقب قيام الخلافة العباسية ، إلى الاضطهاد والتنكيل والتعذيب ، فهلك منهم عدد كبير ، ومن نجا منهم التمس طريقا للاختفاء أو الهرب ، ومن الذين فروا من هذا الاضطهاد عبد الرحمن الأموى من سلالة هشام بن عبد الملك ابن مروان ، حيث لجأ إلى أسبانيا . واستطاع عبد الرحمن ، بفضل اليمنيين أن يقيم له ملكا فى أسبانيا على أنه حدث فى السنوات السابقة على قدوم عبد الرحمن ، أن أعلن

أحد القرشيين وهو عامر بن عمرو نفسه واليا على أسبانيا من قبل الخليفةالمنصور وذلك سنة ٧٥٣ . وفى تلك الأثناء تطلع والى برشلونة إلى ببين ليساعده ضدالمنيين ، فنشأت بذلك العلاقة بين ببين والمسلمين فى أسانيا ، ووقع فى تلك الأثناء أيضا من الثورات فى شمال إفريقيا مادعا العباسيين إلى أن يرسلوا حملات انتهت بالاستيلاء على القيروان سنة ٧٦١

وفى شمال البرانس حدث من الأحوال مايماثل ذلك ، إذ لم تهدأ ثائرة جنوب غاله منذ أن نهض بالحكم حجاب البلاط ، وذلك لتغلب العنصر الرومانى بهذه الجهات ، ولما تمتع به الكونتات من استقلال يكاد يكون كاملا — وترتب على ذلك أن حاكم اكيتانيا المعروف باسم كونت أود Eudes ، حينما أحس بمايتعرض له من تهديد من قبل حجاب البلاط ، عمل على تأمين نفسه ضد شارل مارتل ، فزوج ابنته من والى الثغر المعروف باسم عثمان سنة ٧٣٠ ، بينما تنازل مورونتوس Maurontus كونت مرسليا لأمير أربونة (ناربون) عن آرل وأفينيون ومدن أخرى . ولما مات أود سنة ٧٣٥ ، انقض شارل مارتل على اكيتانيا ، فاحتل مدنها ، غير أنه لم يلبث أن ترك السلطة فى أيدى أمرائه ومقطعيه ، ولم يهاجم المسلمين الذين سيطروا وقتذاك على ساحل خليج ليون . وماوجهه شارل مارتل سنة ٧٣٩ من حملة حربية لم يقصد بها المسلمين ، بل وجهها ضد مورونتوس الذى لاذ بالهرب . ثم ازداد العداء ضد دوقات الجنوب ، بعد أن تم عزل شلدريك الثالث آخر ملوك الفرنجة ، وتولية الملك ببين سنة ٧٥١ ، وعندئذ وجد عبد الرحمن الأموى فى وايفز دوق اكيتانيا حليفا قويا ضد خصمه الفرنجى ، على أن سقوط أربونة سنة ٧٥٩ فى يد ببين أدى إلى أن تصبح أطراف مملكته مصاقبة لأملاك المسلمين (والى برشلونة) .

وما حدث فى السنوات الواقعة بين ٧٦٠ ، ٧٦٨ من هزيمة وايفر ، وتطور التحالف بين البابا والفرنجة لمقاومة الدولة البيزنطية ، يعتبر عاملا هاما فى تطور العلاقات بين الفرنجة والمسلمين . ذلك أن سياسة البابوية كانت ترمى وقتذاك إلى منع قيام تحالف بين ملك الفرنجة وقسطنطين الخامس الامبراطور البيزنطى .

ثم وقع من الحوادث ما جعل بيبن يبعث بسفارة إلى بغداد وجدت ترحيبا من قبل الخليفة العباسى (المنصور) ، إذ أن العلاء بن المغيث الذى أرسله المنصور سنة ٧٦٣ لاسترداد الأندلس من الأمويين ، حلت به هزيمة ساحقة أدت إلى فشل سياسة المنصور ، ولعل هذا الفشل هو الذى جعله يستقبل سفارة بيبن ، يضاف إلى ذلك أن تأييد الفرنجة للسياسة البابوية ضد القسطنطينية[1] يعتبر أيضا من العوامل التى جعلت بيبن يسعى إلى أن يلتمس صداقة الخليفة العباسى، عدو الأمبراطور البيزنطى، ففى سنة ٧٦٥ أرسل بيبن سفارة إلى بغداد ، مكثت بها ثلاث سنوات ، ثم عادت يصحبها رسل من قبل الخليفة المنصور يحملون الهدايا إلى بيبن، فاستقبلهم بيبن بالحفاوة ثم عادوا بطريق البحر إلى بغداد ، وقد حملوا معهم هدايا بيبن ، ولم يكن المقصود بسفارة بيبن سوى إقامة حلقة من المحالفات ضد أموى الأندلس[2] والامبراطور البيزنطى .

مات بيبن سنة ٧٦٨ ، وخلفه على الحكم ولداه شارل وكارلومان، وتولى هادريان البابوية سنة ٧٧٢ ، فبدأ التحالف بين شارل والبابوية . وفى السنوات الخمس التالية ، التى أمضاها شارل فى قتال السكسون واللومبارديين ، تعرض مركز عبد الرحمن الأموى للخطر ، نتيجة ارتباط الحزب العباسى بالأندلس بثورة قام بها البربر فى وسط اسبانيا ، وهذه الثورة أعدها ودبرها ثلاثة ولاة : والى برشلونة ، سليمان بن يقظان العربى ، وعبدالرحمن بن حبيب الذى اشتهرت أسرته بعداوتها للأمويين، وأبوالأسود

---

(١) أشاع البابا فى سنة ٧٦٠ أن الإمبراطور البيزنطى أرسل أسطولا مؤلفا من ثلاثمائة سفينة لمهاجمة روما وفرنسا ، وحرص البابا على أن يقدم بيبن إلى إيطاليا لمقاومته ؛ انظر :
Pierenne : Muhammad ad & Charlemagne p. 227.

(٢) رفض بيبن إجراء محالفة مع أمير برشلونة ، ورأى أن يتحالف مع العباسيين أعداء الأمويين بعد أن أخضع اكيتانيا ومد أطراف ملكه نحو الجنوب ؛ إذ كان يطمع فى مواصلة التوسع جنوبا انظر : (Cambridge Medieval History II. 604.)

يوسف (الحسين بن يحيى) الذى أمر عبد الرحمن الأموى بحبس أبيـــه ، وتضمنت خطتهم حشد قوات من البربر بإفريقية وقطع طريق الاتصال بين عبد الرحمن والبحر المتوسط، ولتدعيم مركزهم فى الشمال توجه سليمان وابنه يوسف إلى شارل فى بادربورن وعرضا عليه حمايتهم وحماية ممتلكاتهم ، مقابل الحصول على مواضع فى شمال أسبانيا.

على أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذى دفع شرلمان للقيام بمغامرته فى أسبانيا . لم يشر اينهارت إلا عرضا إلى أن شارل كان يأمل فى الاستيلاء على بعض المدن الأسبانية غير أن ما ورد فى قصة تيرين المزعوم التى ترجع إلى القرن الثانى عشر الميـلادى من أن القديس جيمس الرسول ، الذى يقع مشهده فى Comopostele بشمال غربى أسبانيا، تراءى لشارل أثناء النوم ودعاه للنهوض لاستخلاص جليقية من يد المسلمين، وهى التى يقع بها قبره . هـــذه الرواية إنما تدل على ما يكنه المسيحيون وقتذاك من الكراهية للمسلمين الذين استولوا على بلادهم، ومن الدليل على ذلك أن ملوك أستوريس وأساقفة طليطلة ظلوا على اتصال مستمر بالمسيحيين فى مختلف البلاد ، فأثاروا عندهم الشعور العدائى ضد المسلمين . أما رجال الكنيسة فصاروا يترقبون الساعة التى ينبغى أن تعود فيها قرطاجنة القديس أغسطين إلى حظيرة الصليب ، وأن تقوم المجامع الكنسية بوضع قوانين اسبانيا على نحو ما حدث فى الزمن الغابر . يضاف إلى ذلك أن شارلمان تلقى من البابا هادريان أن فكرة الحرب ضد الوثنيين هى رسالته التى اختص بها، فأعد شارل نفسه لخدمة الكنيسة سواء على نهر الألب أو على نهر الإبرو. وربما رأى شارل أنه من الخير أن يقوم بتقوية الأطراف الأكيتانية ، وأن يمعن فى تخويف الغاليين باستعراض جيشه الضخم من الفرنجة ، وأن يجعل لهم عدواً آخر من غير الفرنجة يحاربونه . والواقع أن شارل كان يهدف إلى أن يجعل سلطانه يمتد إلى أقصى طرف، يتفق مع استقرار الأمور، وأن ينشر داخل تلك الحدود تلك الصورة من الإيمان والحضارة التى أعدها فى نطاق كنيسة الفرنجة .

وكيفما كان الدافع ، فإن شارل سار بجيوشه فى ربيع سـنة ٧٧٨ ، فعبر جبال

البرانس مجتازا مضيق روتسيفال، وفى بامپلونا أعلن البشكنس الخضوع له ، ثم توجه إلى سرقسطة ، وكان ابن العربى قد أشار بأن سرقسطة سوف تفتح له أبوابها ، غير أن ذلك لم يتحقق ، إذ امتنعت المدينة على شارل على الرغم من طول حصارها . ولما بلغ شارل نبأ اندلاع الثورة فى سكسونيا ، أمر برفع الحصار عن سرقسطة وانسحب بجيشه راجعاً إلى غالة ، وخرّب أثناء مسيره أسوار بامپلونا . غير أنه أثناء اجتيازه مضيق روتسيفال ، تعرضت مؤخرة جيشه للهجوم من قبل البشكنس ، فأنزلوا القتل والنهب بجند شارل، وفى هذه المعركة لقى رولان مصرعه ، وهذه المعركة خلدتها قصيدة رولان ، التى سوف نتحدث عنها فيما بعد .

وما حدث لشرلمان من الهزيمة فى روتسيفال جعلته يفكر فى إقامة إمارة مستقلة فى داخل مملكة الفرنجة ، وهى مملكة اكيتانيا ، وجعل مهمتها الأساسية ملاحظة نشاط المسلمين فى منطقة الحدود ، ونصب على هذه المملكة ابنه لويس ، الذى تعلم من أبيه أن يعتبر المسلمين فى أسبانيا عدوه الطبيعى ، وأن نهر الإبرو هو الحد الطبيعى لمملكته، ووجد فى الدوق وليم أمير تولوز قائداً كفأ لتنفيذ سياسة حازمة على الحدود.

على أن ما حدث من الحروب بين قوات الفرنجة والقوات الأموية كان فى صالح الأمويين حتى سنة ٨٠١ ، حين سقطت برشلونة فى يد الفرنجة ، ثم استولى لويس سنة ٨١١ على طرطوشة ، وأعقب ذلك عقد هدنة مع الحكم استمرت قائمة حتى وفاة شارلمان . على أن الطرف الأسبانى لم يمتد إلى نهر الابرو، إنما وصل إلى خط يمتد شمال، وشمال شرق برشلونة ويسير موازياً لجبال البرانس . وفى سنة ٧٩٩ خضعت جزر البليار لحماية الفرنجة .

وما جرى فى الشرق من الأحداث ، إنما يدل على ما أحرزته الجيوش العباسية من انتصارات على البيزنطيين فى آسيا الصغرى زمن المنصور والمهدى ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٥ ، ٧٨١ ، فطلبت ايرين الصلح مقابل دفع الجزية .

ثم ازداد مركز ايرين حرجا بسبب افتقارها إلى التأييد من داخل البلاد ،

وما تعرضت له من عداوة الغرب، فحاولت أن تعقد محالفة مع شارل يزيدها قوة ومتانة الاقتراح بزواج ابنها قنسطنطين من ابنة شارلمان روترود ، وأحبت أن تجتذب البابا إلى جانبها فأعادت عبادة الصور المقدسة . غير أن البابا هادريان كان حريصاً على منع التحالف بين بيزنطة وآخن ، فعمد إلى إخطار شارلمان بما جرى من العلاقات بين ايرين والعباسيين ، وإلى مايقوم به البيزنطيون من التآمر فى إيطاليا ولاسيما بين الأمراء القطعين من اللومبارديين فى الجنوب . ففى سنة ٧٨٧ أرسلت ايرين إلى أريفيس دوق بنيفنتو خلعة البطرقية ، على أنه من أتباع قنسطنطين السادس ، وعلم شارل بذلك من البابا ، غير أن جريموالد الذى خلفه فى الدوقية لم يقبل عروض ايرين وابنها قنسطنطين السادس . فتعرضت بنيفنتو للهجوم من قبل الحاكم البيزنطى فى صقلية ، فنهض شارلمان لمساعدته ، وأنزل الهزيمة بحاكم صقلية والبيزنطيين ، واستولى على أستريا ، غير أنه حدث من الأمور ما جعل شارل يسير شمالا لمواصلة الحرب مع الآفار والسكسون فأغفل أمور الشرق .

وتعرضت أملاك البيزنطيين لغارات شديدة برا وبحرا من قِبلَ العباسيين ، وأشد هذه الحروب وأخطرها تلك التى وقعت سنة ٧٩٦ ، حين أوغل الرشيد بجيوشه فى آسيا الصغرى ، وفرض الصلح على إيرين ، مقابل دفع جزية كبيرة ، وفى نفس السنة أرسلت إلى شارل تعلن تنازلها عن دعاويها فى بنيفنتو واستريا ، والراجح أنها احتاجت إلى مساعدته ضد الأحزاب البيزنطية وهرون الرشيد ، وترتب على ذلك أن قَبِل شارل استئناف العلاقات الودية مع إيرين .

يشير بكلر إلى أن فكرة التحالف بين هرون الرشيد وشارل إنما ترجع إلى مادبره البيزنطيون من مؤامرات فى جنوب إيطاليا ، وإلى ماوقع من التخاصم بين أفراد البيت الأموى فى الأندلس على الحكم ، والاستنجاد بشارل للتدخل فى تسوية المشاكل الأسبانية . فتألفت سفارة شارل إلى هارون الرشيد من سجسموند ولنتفرد ، ومن يهودى اسمه إسحاق ليتولى الترجمة . ويبدو أن السفارة ارتحلت حوالى سنة ٧٩٧

ومكثت ثلاث سنوات ، مات أثناءها سجسموند ولنتفرد . والراجح أنهما ماتا بعد أن أنجزا مهمتهما ، لأن هارون أرسل مبعوثين ردا على هذه السفارة . ويزعم بكلر أن أغراض السفارة اشتملت على السعى لتحقيق هدف أو أكثر من الأهداف الآتية : وضع شارل فى أسبانيا وغرب البحر المتوسط باعتباره مسئولا عن مصالح العباسيين فى هذه الجهات . الهدف الثانى التحالف مع الرشيد وما يترتب على ذلك من التعاون المشترك ضد الأمويين بأسبانيا وضد البيزنطيين ، أما الهدف الثالث فينطوى على تيسير قدوم الحجاج المسيحيين إلى الأراضى المقدسة . ويشير إلى أن ما اتبعه شارل من سياسة هجومية فى أسبانيا أرضت الخليفة العباسى ، فاستولى على برشلونة ووشقة وبامبلونا ، وأقام حكومة الطرف الأسبانى ، ورد هجوم العرب على جزائر البليار سنة ٨٠٧ . وما حدث من هجوم فى البحر المتوسط من قبل الأغالبة بشمال إفريقية الذين يعترفون بالتبعية للرشيد ، يعتبر تأييدا من قبل حكومة بغداد لنشاط شرلمان . ففى سنة ٨١٠ ، ٨١٢ هاجم الأغالبة جزر قورسيقة وسردينية وصقلية ، وأعقب هذا الهجوم النزول بإيطاليا ذاتها سنة ٨١٣ ، ولعل كل ذلك هو الذى أرغم كلا من الإمبراطورين نقفور وميخائيل على تسوية الأمور بشأن تتويجه إمبراطورا .

أما مسألة الحجاج المسيحيين ، فالمعروف أن المسيحيين لم يتعرضوا لمعاملة سيئة من قبل المسلمين ، وأن عددا كبيرا منهم دخل فى خدمة الحكومة العباسية . غير أن الحركة الناهضة لعبادة الصور فى بيزنطة وظهور نحلة التبنى فى الغرب ، أدت إلى أن ينفصل عن القسطنطينية لا الغرب فحسب ، بل الكراسى الرسولية الأخرى روما ، والإسكندرية ، وبيت المقدس وانطاكية . وما أورده إينهارت من الإشارة أن هارون الرشيد قبل أن يكون لشارل السلطة والإشراف على الأماكن المقدسة ، ربما كان المقصود من ذلك التخلص من النفوذ البيزنطى فى بيت المقدس . وتشير الحوليات الملكية وهى المصدر الوحيد المعاصر ، والذى نقل عنه إينهارت هذه الرواية ، إلى ما قام به بطريرك بيت المقدس من إرسال مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارل فى ٢٣ ديسمبر

سنة ٨٠٠ وماحدث سنة ٨٠٨ يدل على كراهية رجال الدين المحليين لرجال الدين فى بيزنطة ، إذ أن رهبان جبل الزيتون طلبوا إلى البابا أنهم يأملون فى حماية ملك الفرنج. مناقس نقفور وحليف هارون الرشيد ، من ظلم البيزنطيين المتغطرسين .

الواقع أنه من العسير أن نتصـــور أن البطريرك والخليفة (الذى لم يرد له ذكر فى المصادر) اعترفا بشرلمان حاميا على الأماكن المقدسة . والراجح أن مفاتيح القبر المقدس وموضع صلب المسيح لم تكن إلا كالمفاتيح الصغيرة لكنيسة القديس بطرس بروما ، التى يهديها البابوات إلى كبار الشخصيات ، أو كالشارات والتعاويذ، وكذلك كان شأن مفاتيح المدينة وجبل صهيون ومدينـــة داود ، حيث حفلت الكنيسة الكبيرة بكثير من الذكريات المثيرة كالحلقة والعمود الذى صلب عليه المسيح، والموضع الذى هبط فيه الروح القدس على المسيح ، والموضع الذى به قبر العذراء مريم ، والحجر الذى تحجر عنده القديس إيتين . أما العلم فلم يكن إلا الصليب ذاته ، وجرت تسميته بهذا الاسم لأنه يشبه اللواء الذى انتصر به المسيح ، وهو عبارة عن قطعة من المعدن المذهب ، اشتملت على قطعة صغيرة من صليب الصلبوت .. هذه المقدسات لم تكن لها أهمية سياسية ، وليست إلا شاهدا على ما يقدمه رجال الدين فى بيت المقدس من الشكر لشارلمان ، أما البطريرك فاعتبرها من مظاهر التبريك .

إنما هل كان ثمة ما يدعو البطريرك لأن يبذل الولاء لشرلمان ؟ حدث فى شهر يونيه سنة ٨٠١ أن استقبل الامبراطور أثناء عودته من إيطاليا إلى فرنسا ، رسولين أحدهما من قبل هارون الرشيد والآخر من قبل إبراهيم بن الأغلب ، فأخبراه بأن السفارة التى أرسلها سنة ٧٩٧ إلى الرشيد نجحت فى مهمتها ، ووصل إسحاق سنة ٨٠٢ بهديه الرشيد ، ومن بينها الفيل الذى اعتبروه من الغرائب .

وما أرسله أميرا آسيا وإفريقيا إلى شرلمان من الهدايا إنما ترمز إلى ما يربطهما من علاقات المودة مع شارل . والراجح أنه لم يكن ثمـة من التحالف الدبلوماسى بين هارون وشارل إلا ما كان من انقطاع الحروب بينهما . وفيما يتعلق بالأراضى المقدسة

لاتخرج المسألة عن أن مابدا من مظاهر النبل والشرف من قبل خليفة اشتهر بالتسامح وكفل الأمن والطمأنينة للمسيحيين فى بلاده ، وأتبع ذلك بما أرسله من هدايا نالت تقدير شارلمان ، ولم تكن المصالح المشتركة بينهما فى حاجة إلى أن يتنازل هارون الرشيد عن جانب من أراضيه أوسيادته إلى شرلمان . ويضاف إلى ذلك أن هدايا هارون الرشيد إلى شرلمان . التى أرسلها مع سفارته سنة ٨٠٧ لاتقل فى أهميتها عن الهدايا التى جاءبها من قبل ، فمنها منسوجات رفيعة رائعة الجمال ، ومنسوجات حريرية وعطور وشمعدانات ، وساعة من البرونز المطلى بالذهب ، تدق الساعات ، وحين تدق ساعة الظهيرة ، يخرج من وجهها اثنا عشر فارسا من اثنتى عشرة نافذة ، تغلق خلفهم .

هذه العلاقة الودية بين الملكين ترتب عليها نتائج طيبة للمسيحيين الذين جاءوا إلى الأراضى المقدسة أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، وورد ذكرها فى بعض الوثائق التى ترجع إلى مابعد وفاة شرلمان مثل رحلة الراهب الفرنجى برنارد التى قام بها إلى فلسطين ووفقا لهذه الشواهد ، ازداد اهتمام شرلمان بما فى بيت المقدس من أديرة وخانات ، يأوى إليها الحجاج القادمون من مملكته ، ففى جنوب كنيسة بيت القيامة شيد شرلمان خاناً اختص بالنزول فيه المسافرون الذين يتحدثون اللغة الرومانية ، وأهدى شرلمان كنيسة العذراء مكتبة ضخمة ، ووقف عليها بعض الحدائق والبساتين وشيد أيضا ديرا يتسع لسبعة عشر راهبا .

استمرت العلاقات بين الأمبراطور وبطريرك بيت المقدس ، ففى سنة ٨٠٩ بعث البطريرك إلى البابا ليو الثالث يطلب إليه التوسط عند الامبراطور للاهتمام بأمر اثنين من حجاج الفرنجة . وحوالى هذا الوقت تعرض الرهبان الفرنجة بدير جبل الزيتون للإهانة والرمى بالزندقة من قبل الرهبان اليونانيين بدير القديس سابا ، لأنهم اعترفوا بنحلة التبنى ، واشتد قلق هؤلاء الرهبان من الفرنجة ، لأنهم اعتبروا أنفسهم غرباء فى فلسطين ، وأرسلوا بشكواهم إلى البابا الذى رفعها إلى الامبراطور ، وهذا دليل على أن شارل لم تكن له السيادة على هذه الجهات .

يضاف إلى ذلك ما أورده اينهارت عن سياسة شارلمان إزاء المسيحيين ، إنما يدل على أن ما يقوم به شارل من العطف على المسيحيين فى سائر الجهات : فى مصر وتونس والإسكندرية وقرطاجنة ، إنما يتطلب إنشاء علاقات ودية مع الأمراء المسلمين الذين يعيش فى بلادهم عدد كبير من المسيحيين .

والخلاصة أن حماية شرلمان للأراضى المقدسة ليست إلا أسطورة ، يرتبط تفسيرها بالعلاقات بين شارلمان وهرون الرشيد . ففى أثناء حكم شارلمان لم يعلم الناس شيئاً عما للأمبراطور من سلطان وسيادة ؛ أيًّا كان هذا السلطان ، على الأراضى المقدسة . وظل الحال على هذا النحو مدة ٧٥ سنة أى حتى سنة ٨٨٣ ، ٨٨٧ ، أى حين ظهرت ملاحم شرلمان لراهب دير القديس جال ، وهـذا الراهب الذى اشتهر بسعة اطلاعه ، رأى فى سبيل تعظيم بطله أو رغبة فى إثارة خيـال الناس ، أن يضيف إلى ما تلقّاه شارلمان فعلا من الهدايا الواردة فى كتاب اينهارت والحوليات الملـكية ، كل منتجات الشرق ، بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلك ، فاخترع محادثة جرت بين الخليفة ورسل الفرنجة حيث صرح لهم الخليفة بأنه على استعداد أن يكون نائباً عن شارل فى حكم الأرض المقدسة ، لأن أخاه شارل ليس فى استطاعته أن يجتاز البحر لحماية هذه الأراضى من المتبربرين .

ثم حدث فى سـنة ٩٢٥ أن ظهرت قصة أخرى يشير مؤلفها وهو أحد الرهبان إلى أن ما فى ديره من قطرات الدم المقـدس إنما هى من دماء المسيح ، جاء بها أحد المسلمين .

شارل والقصص : ما ألفه الفرنسيون من القصص عن شارلمان يفوق بكثير ما ألفه الألمان. ولابد أن نرجع إلى الشعر الفرنسى كيما نتعرف إلى قصص رولان وتبرين ومارسيلا ومانيلون والرحلة إلى بيت المقدس ، والاثنى عشر فارسا ، والحروب مع المسلمين بكل جهات أوربا . على أن الحقيقة تبدو غريبة على الذين يظنون أن المانيا ، وليست فرنسا ، هى التى تدين بوجودها إلى شارلمان . والواقع أن ذلك لم يكن أمراً

غريبا ، لو أدركنا أن شارل أول ما ظهر عند الجرمان ، ظهر على أنه محارب شديد القسوة مجرد من الرحمة ، دمر ما يعتز به الجرمان من الانفرادية والذاتية . وأهم ما تذكروه من أعماله ، ماقام به من الانقضاض على أطراف بلادهم ، وقمع ثورتهم وانتزاع شبانهم وقذفهم فى الحروب فى جهات نائية . بينما يعتبر شارل عند غاله منقذاً وحامياً إذ رد عنها المسلمين والدانيين . واستمتعت غاله بهدوء نسبى ، على الرغم من الحروب المستمرة ، التى لم تنشب إلا من أجل مصالح غاله ، ونبتت من أفكار لم تتردد غاله فى قبولها .

على أن أصول أسطورة شارلمان ظلت مضطربة . وكل ما نستطيع أن نقوله عنها على وجه التحقيق أن أسسها ترجع إلى القرن التاسع وأوائل القرن العاشر . إذ أن قصصاً لا حصر له عن بيت أرنولف انتشر وذاع فى أنحاء فرنسا ، واتخذ الشعراء المنشدون الوقائع المثيرة مثل حصار بافيا وهزيمة روتسيڤالا ، وألفوا منها مقطوعات قصيرة مثيرة ، اعتبرها السامعون لها موجزا لما وقع من الحوادث ، وتركزت حلقات من الأناشيد حول أسماء كبار الفرسان مثل اجبهارد الصنجيل ووليم دوق تولوز ، وأريك دوق قريولى .

على أن المؤلفين لم يقنعوا بالحقائق المجردة ، بل أضافوا إليها حلقات من نسيج خيالهم ، أو من قصص تتعلق بالأبطال المتقدمين ، فجرت واية القصص القديمة بأسماء جديدة ، وبذلك تطورت المأثورات الشعبية منفصلة ومستقلة عن المصادر الأدبية . فالأناشيد المعروفة بأناشيد المآثر تتيح لنا الإلمام بتواريخ البلاط ، والإلمام بكتاب اينهارت يوقفنا على حياة شارلمان .

على أن ما استمدته هذه الأناشيد والأغانى من هذه المصادر من المعلومات تعتبر بالغة الغموض والشيوع ، إذ تناولها من التغيير والتحوير ماجعلها تتناسب مع حاجات الشعر ومقتضياته .

على أن أعظم هذه القصائد وأشهرها ، هى أنشودة رولان . والأصل التاريخى كما

أورده اينهارت فى ترجمته لحياة شارلمان (حوالى سنة ٨٣٠) والذى سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن روتسيفال ، إنما يتلخص فى أن مؤخرة جيش شرلمان تعرضت عند اجتيازها مضيق روتسيفال لخيانة البشكنس الذين نصبوا كمينا فى الغابات الكثيفة التى تغطى جانبي المضيق ، ثم انقضوا على مؤخرة الجيش فقضوا على كل رجالها ، ونهبوا ما معهم من الأمتعة ، وتفرقوا فى جنح الظلام ، فلم يعثر لهم على أثر . ويختتم اينهارت قوله : وفى هذا الحادث لقى مصرعه اجيهارد صنجيل الملك ، وأنسلم حاجب القصر ، ورولان دوق بريتانى ، وآخرون . وفى مخطوطة ترجع إلى القرن التاسع وردت مرثية بالشعر اللاتينى فى اجيهارد . وما زال شاهداً قبرى رولان واجيهارد قائمين ، وأهميتهما ترجع إلى الإشارة إلى تاريخ المعركة ١٥ أغسطس سنة ٧٧٨ ، وهذا الحادث أشار إليه مؤرخ آخر فى سنة ٨٤٠ ، إذ لخص رواية إينهارت وأضاف إلى ذلك أنه لا داعى لتكرار أسماء القتلى فى كتابه نظرا لأنها معروفة وقد جرى تسجيلها .

ثم ظلت قصة روتسيفال مطوية نحو مائتى سنة ، حتى إذا ظهرت من جديد طرأ عليها من التغيير ما يصح أن تدهش له ، لولا أننا نعلم أن هذا التغيير أمر مألوف فى هذا النوع من القصص . وترتب على ذلك أن الحادث التاريخى البسيط تضخم حتى أصبح ملحمة حافلة بأعمال البطولة ، وأضحى لها دلالة مثالية قوية . ذلك أن شارلمان الذى لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره ، عند قيامه بالحملة على أسبانيا ، أضحى رجلا وقوراً من رجال الدين ، يبلغ من العمر مائتى سنة ، صار ملكا ذا لحية فى بياض الثلج ، امبراطورا مقدسا ، بطل العالم المسيحى ضدالمسلمين ، القائد المظفر الذى امتدت فتوحه فى أنحاء العالم المتمدين ، أضحت الحملة ذاتها حلقة كبيرة من حلقات النضال بين المسيحيين والمسلمين ، وتحول البشكنس المغيرون ، وتضاعف عددهم حتى أصبحوا جيشا كبيرا من المسلمين، يبلغ عدده آلافا من الجند، واختفى اسم كل من إجيهاردوأنسلم

من مؤخرة الجيش ، ولم يبق إلا رولان ، الذي أصبح ابن أخي الامبراطور ومساعده الأيمن ، وأعظم محارب فى العالم .

جاز قوة خارقة ، وصار بطلا قام بأعمال مجيدة لاحصر لهـــا . صحبه صديقه الحميم أوليفر ، ورفاقه العشرة المختارون ، وهم فئة مختارة من أشجع الفرسان ، يعتبرون زهرة الفروسية الفرنسية . أما الـكمين الذى أدى إلى مصرعهم فلا زال يعتبر نتيجة لخيانة من قبل الفرنجة ، إنما أصبح مؤامرة محكمة اشترك فيها مارسيليون ملك المسلمين وكونت جانيلون أحد نبلاء فرنسا ، زوج والدة رولان . والغرض من كل المؤامرة هو القضاء على رولان ورفاقه الفرسان . وهـــذه المؤامرة إنما نشأت بسبب مايكنه جانيلون من الـكراهية لرولان ، والخلاصة أن ما بدأ بهزيمة بسيطة لاتختلف عما يجرى فى التاريخ من الهزائم صار بعد مائتى سنة ملحمة من أروع الملاحم ، وهى قصيدة رولان .

وهذه القصيدة اتخذت صورتها النهائية ، فيما يبدو ، حوالى نهاية القرن الحادى عشر ، وليس من العسير أن ندرك السبب الذى جعل الملحمة تتخذ صورتها التى انتهت إليها ، وأنها نالت مانالته من الذيوع والانتشار . فالمعروف أن النضال اشتد بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا حوالى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وفى نفس الوقت ذاعت أساطير وأغانى البطولة والفروسية فى أنحاء أوربا على امتداد طرق التجار والحجاج ، وهذه الأساطير ارتبطت بأسماء الأبطال المحليين ، وارتبطت أيضا بالمدن والأديرة الهامة الواقعة على هذه الطرق . فطريق الحجاج المؤدى إلى مشهد القديس جيمس الرسول فى كومبوستيلا يمر بنفس المضـيق الذى اجتازته مؤخرة جيش شارلمان ، وحلت به الهزيمة . فمن الطبيعى أن يتغنى المسافرون بصورة مجيدة لما حدث بهذا الموقع من مأساة . وشهد القرن العاشر أيضا ازدهار النظام الإقطاعى وتطور قانون الفروسية الذى ألزم التابع بأن يؤدى خدمات لسيده ، يضاف إلى ذلك أن الدعوة إلى الحرب الصليبية الأولى ألهبت حماس العالم المسيحى للحرب المقدسة ضد المسلمين .

ليس لدينا دليل واضح على أن قصيدة رولان ترجع إلى أعقاب الحرب الصليبية

الأولى كما يشير بعض الكتّاب. والراجح أن هذه القصيدة التى نعتبرها أيضا أسطورة، بدأت فى وقت أكثر تبكيرا ، يجعلها بعضهم ترجع إلى الفترة بين الفتح النرمندى لانجلترا ١٠٦٦ ، وبين الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٦ ، وذلك أن الشاعر فى مستهل قصيدته يفترض أن سامعيه يعلمون كل شىء عن شرلمان وأمرائه ، وعن صداقة رولاند وأوليفر ، وعن جانيلون ، أى أنه يروى قصة وعتها أفئدة الناس وعقولهم .

والواقع أن دراسة هذه القصيدة تتطلب اهتماما خاصا للتعرف إلى المراحل التى تحوّل فيها التاريخ إلى أسطورة ، وتحوّلت الأسطورة إلى ملحمة . فرولان دوق بريتانى لابد أنه كان رجلا هاما ، غير أنه لم ترد عنه سوى إشارة تاريخية عابرة . ولماذا جرى اختياره ليكون بطلا دون غيره من الذين حاربوا معه ولقوا حتفهم مثله ؟ كيف تطورت القصة ؟ وفى أىّ صورة ؟

تعتبر قصيدة رولان أقدم اللاحم المدوّنة بالفرنسية القديمة والمعروفة بملاحم المآثر، فهى قصيدة قصيرة لا تزيد على ٤ آلاف بيت . جرى فيها نعت شرلمان بعدد من الصفات الأسطورية المرتبطة بمكانته على أنه أمبراطور. فما أحاط المنصب الامبراطورى من قداسة ، انتقلت إلى شارلمان من قسطنطين وجستنيان ، وجعلت الأسطورة عمره مديداً لا حدّ له .. وما اتصف به من لحية فى بياض الثلج، وقوة لم تنل منها السنوات العديدة ، إنما ترمزان إلى القداسة والأبوّة . فهو يمثل الإله ، ومنشئ العالم المسيحى وتتحدث الملائكة مع شرلمان ...

ومن تحت هذه الشخصية التى تعبر فى ضخامتها أكبر من الحياة ذاتها ، نلحظ شيئاً آخر . نلحظ صورة السلطان المثالى ، الذى اشتهر بالعدالة والحكمة والعظمة والإخلاص . وبذل الشاعر جهده فى أن يصف لنا فى شرلمان فكرة العصور الوسطى عن الملك ، بأنه لم يكن عجولا فى الرد ، ولم يبادر بالقيام بعمل إلا بناء على نصيحة مجلسه ، وله الحق فى الاعتراض على كل اقتراح قبل أن يُعْرَض للتصويت ، غير أنه إذا حاز الموافقة من المجلس ، تحتم تنفيذه . سواء أقر هو هذا الاقتراح أو رفضه ،

ويقابل هذا بما يسلكه الأمراء الآخرون الواردة أسماؤهم فى الملحمة من انفرادهم بالعمل .

ثم يصف السلوك الشخصى لشرلمان ، من حيث مكانته ، ودمائته وإقدامه ،وقوته، وشعوره الدينى المتأصل ، وصداقته ومحبته الزائدة لابن أخيه رولان وأقرانه ، وللشبان الذين يعتبرهم أبناءه ، فهو يركب ويحارب بين باورناته على أنه أعظم هؤلاء البارونات .

على أن الشعراء المتأخرين ازداد نزوعهم إلى تطوير هذه الأغراض على حساب الشخصية الأساسية (البطل) ، ومن هنا حدث فى فترة الحروب الصليبية أن دخلت الملحمة الأسطورية فى مرحلة جديدة من التطور ، إذ ساد الاعتقاد بأن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية ، واستغل الشعراء هذه الناحية ، فأخرجوا ترجمة جديدة لحياة أول امبراطور غربى، صوروه فى هيئة محارب صليبي ، ليست حياته الأولى إلا عبارة عن حروب متصلة ضد الكفار ، وأحكموا ابتداع قصة رحلة ، قام بها شارلمان إلى بيت المقدس ، وإلى القسطنطينية ، وعمدوا إلى تشويه الأناشيد القديمة التى تشير إلى الحروب القومية ضد الفرنجة فى إكيتانيا وبريتانى وسكسونيا ولومبارديا ، وأقحموا اسم المسلمين فى كل موضع من هذه المواضع .

السيد الباز العريني